المقدمة

الشعرُ. . . والوجود الإنساني:

نحنُ كائنات متناهية، يدركُنا الموت بعد حين يعلمه الله سبحانه، وقد أودع الخالق في جبلتنا غريزة حب الحياة، والحرص على البقاء، والسعي الدائب إليه، وأودع في فطرتنا الوعي بحتمية الفناء في ذات الوقت.

وهذان الأمران المتضادان في الاتجاه، والمتكافآن في القوة هما مدار الحياة الإنسانية، مدار الابتلاء، والصراع، والامتداء إلى الإيمان، أو الانزلاق إلى الجحود.

والإنسان ليس وحده الكائن المائت، ولكنه الكائن الوحيد المُدرك لموته، وهكذا يجب أن يكون تعريفه، لا كما قال بعض الفلاسفة من أنَّ الإنسان «كائنٌ ناطقٌ مائت»، أو كائنٌ مفكرٌ، أو...، بل يجب أن يكون تمييز الإنسان من خلال إدراكه لحتمية موته، حيث يقف إدراكه للموت وراء كثيرٍ من فعله، وفكره، ومشاعره.

يقف إدراك الإنسان للموت وراء فهمه الشديد للحياة، لعلمه بقصدها وسمتها العابرة الزائلة. ويقف هذا الإدراك - وراء سلوك آخر - ضدي - هو احتمال الإنسان لكثير من المكابدات في الحياة لعلمه بزوال الحياة ذاتها، وليس مكابداتها فقط.

وإدراك الإنسان لموته يعني إدراكه لطيفية وجوده في الحياة، و«عامرية» إقامته

obeikandl.com

فيها. ومدى اتصاف هذه الإقامة بالصفة (الاحتمالية)، الوشيكة على الانتهاء في كل لحظة.

يضاف هذا الإدراك إلى ما استقر من مشاعر الاغتراب في النظرة الإنسانية عند نزول آدم وحواء – بعد عصيانهما في الجنة – بما وطَّن مشاعر الاغتراب في الفطرة الإنسانية، وما يتفرع عنها من مشاعر سلبية، تتفاوت كمًّا وكيفاً من ذات إنسانية إلى أخرى.

والشخصية الإبداعية – في أي صورة من صور الإبداع – ذاتٌ متميزة، على قدرٍ عالٍ من الإحساس بالشخصانية والتميز المتوطن فيها لقدرتها على الإبداع، والتعبير الجمالي المؤثر.

ويتميز الشاعر بدرجة فائقة من هذه الشخصانية، التي هي مزيجٌ من الإحساس بالقدرة على التأمل الفكري، والإحساس المرهف بكل خلجة من خلجات الحياة. ثم القدرة على التعبير الجمالي القائم على اللغة الفاتنة والخيال الجامح والعاطفة المتوهجة، والرؤية المتميزة، بدرجة ينسجمُ فيها الفني والفكري والرؤيوي. من هنا يتضخم الإحساس بالذات لدى الشاعر، إذ يشعر بأن ذاته مضاعفة، أو أنه مجموع من الذوات في ذات واحدة ولذلك يمكنه التعبير عن الضمير الجمعي، والتأثير في هذا الضمير.

هذه الشخصانية المتفاقمة لدى الشاعر تقع وراء تأزمه الشديد من إشكالية الموت، واعتبار الموت معادياً لإبداعه أو لشخصيته المبدعة التي ينطفئ وهجها بالموت.

ومن هنا أيضاً رهافة حس الشاعر لكل صور المكابدات الإنسانية، إذ يتأثر بهذه المكابدات سريعاً، ويلتقطها بدرجة أقوى وأسرع من غيره، بما يجعل الطرح

الشعري في أي تجربة شعرية غاصّاً بملامح الاغتراب، والصراع مع الحياة، والمسحة التراجيدية.

يمثل الإبداع الشعري للشعراء هيئة وشكلاً من أشكال مقاومة الإحساس بالفناء والتناهي، والمحدودية الإنسانية، كما يمثل لوناً من ألوان مقاومة الاغتراب، وتصدع الذات، وضديتها للأغيار، سواء كانت الأغيار هم المجتمع الواقعي أو مطلق الوجود.

يُعدُّ الإبداع الشعري إذن خلاصاً من المشاعر السلبية التي تعاني منها ذات المبدع، فالإبداع في هيئته الفنية الناضجة المؤثرة يبدو وكأنه تعميق للزمن، ومضاعفة للوقت، كأنه أزمنة في زمن، لأن التجربة الشعرية هي حاوية الأصوات الإنسانية أو التجارب الإنسانية، وهي - من جهة أخرى - تهوِّن مشاق الحياة، وتجعلها مُحتملة إلى حد ما، لأنها تطرح هذه المشاق في صورة لغوية إيقاعية جمالية تضفي عليها الشعر، وتنزع ما بها من لزوجة الواقع وقيمه.

الإبداع إذن ضدّي للمشاعر السلبية، يبدو وكأنه هو القوى التي تواجه الحزن، والاغتراب، والشعور بالوحشة والضياع والفقد، فالإبداع يمثل الذات المؤنسة للشاعر، وهو رسوله في التوحد مع الذوات الإنسانية التي يُعبِّر عن همِّها وشجنها وأحلامها في شعره، وهو مجاله الذي يحقق فيه المثالية والنموذج الجمالي الذي يفتقده في الواقع.

يمنح الإبداع الشاعر الإحساس باللامحدودية، واللاتناص، يمنحه الإحساس - الزائف المستمر - بالخلود والامتداد في الزمان والمكان.

وللشعر غاية نفسية عيَّنها أرسطو في كتابه «في الشعر» وهي غاية التطهير أو الكاثرسيس، التي تعني قدرة الشعر على تطهير الشاعر - والمتلقي معاً - من

المشاعر السلبية كالخوف والحزن والشفقة والكراهية من خلال ممارسته لهذه المشاعر بعنف وصدق وكثافة في التجربة الشعرية.

الشعر نزوع إلى المثال والاكتمال، والحق، والخير، والجمال من خلال الكلمة الفاتنة الموقعة، وهو إشباع نفسي من هذه الحيوات بمجرد تصويرها فنياً والتعبير عنها، والتعبير عن الشغف بها، بما يجعل لدلالة الخلاص المتوقعة في الشعر أبعاداً عميقة.

ويُمثِّل شعر د. يوسف العارف نموذج القصيدة المعاصرة الواعية بقضايا الوجود الإنساني، يُمثِّل هذا الشعر الذات الإنسانية التي لا تكتفي بتصوير جنبات الواقع المادي المحيط بها، وتصوير ما به من إيجابيات وسلبيات، وما فيه من نقص يستفز الإبداع كطرح حلمه، بل - يمثل هذا الشعر - انشغال الذات الإنسانية بقضاياها الأعمق التي تنبعث من تأملاتها في الوجود واصطدامها بالوجود.

نطالع في هذا الشعر ذاتاً مفترية من إحساسها بحصار الوقت ومحدوديته، وتعقبه للإنسان، بما جعل هذا الإحساس يصل إلى حد تفجير إشكالية خاصة في الطرح الشعري حيث تتعقد دلالات الزمان وتتخذ أبعاداً متشابكة.

وتتعدد بواعث اغتراب الذات في هذه التجربة المميزة، ويختلط فيها الشعور بالشيء في وجهيه: الوجه المضيء والوجه المعتم.

ولأن الذات الإنسانية معقَّدة التكوين لا تقل تعقيداً عن إشكالياتها، وعن تعقيد القوى المواجهة لها - نعاين في هذا الشعر ملامح قوة الذات وجموحها في مقاومة الاغتراب ومحاولة النجاة من أفخاخه في صور شعرية مميزة.

وبما أن التجربة الشعرية هي تضافر الرؤية الفكرية والطرح الفنِّي معاً بما يميز هذه التجربة، تبحث هذه الدراسة في صور الأداء الفني في شعر د. يوسف،

وتحاول تكشف مدى الهارمونية بين الإشكاليات الإنسانية المصورة في هذا الشعر وبين طرق الأداء الفني التي جسَّدتها لنا، مع محاولة تلمس نقاط التماس المفترضة بين هذا الشعر، وبين عموم التجربة الشعرية المعاصرة حيث يفترض بعض نقاط التماس التي يدفع إليها وجود الشعراء تحت سقف زماني واحد، ونهلهم من منابع ثقافية شبه مشتركة، ونهلهم من واقع اجتماعي وسياسي وفكري متقارب السمات، لا موحد السمات.

نسعى من خلال هذه الدراسة النقدية – بإذن الله – إلى تكشُّف الشخصانية في شعر د. يوسف حسن العارف، ومدى توفيقه الفني في إبداع صوت شعري متميز له في الساحة الشعرية المعاصرة، كما نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تتبع سيرورة القصيدة السعودية المعاصرة في مسيرتها الفنية والرؤيوية، ومدى فرادتها في الإبداع المعاصر، ومدى انسجامها والتقائها – في ذات الوقت – بنظائرها الإبداعية.

ونحن في سعينا هذا نقطع خطوات – بإذن الله – في تكشف بعض ملامح القصيدة العربية المعاصرة في تطورها الفني والأسلوبي، وإفادتها من تقنيات القصيدة الغربية، وإفادتها من مفردات تراثها العربي وقدرتها على المزج بين الرافدين، بما يُحقق لها وجوداً متميزاً.

* * *